
الثقافة
والهوية والوعي العربي
د. محمود الضبع

الثقافـة
والهوية والوعي العربي

د. محمود الضبع

بتــانة

الطبعة الأولى 2016

الضبع، محمود
الثقافة والهوية والوعي العربي / محمود الضبع -
القاهرة، بتانة، ٢٠١٦م
٢٦٦ ص، سم.
تدمك: ٩٧٨- ٩٧٧ - ٨٥٢٤٩ - ٩ - ٤
١-الثقافة العربية.



مبنى الجريك كامبس
١٧١ شارع التحرير. باب اللوق
الرمز البريدي: ١١٥١١
info@battana.org

رقم الإيداع
2016 / 9631
الترقيم الدولي
978 – 977 – 85249 -9 – 4

إهداء

إلى كل مثقف عربي.. وعى، فتأمل، فتألم، فعزم !

محمود الضبع

مقدمة

تمثل المعرفة منعطفا شديد الحساسية في ظل التطور العالمي المعاصر، والتدفق المعلوماتي، والانفتاح الثقافي، بحيث غدا الخطاب ما بعد الحداثي ينظر إليها ـ أي المعرفة ـ بوصفها سلعة تباع وتشتري، وآلية من آليات القوة بمفهومها الاستراتيجي، ومن ثم تخضع لإمكانية تبادلها وتقييمها بمفاهيم خارجة عنها تنتمي في الغالب الأعم إلى علوم الاقتصاد ونظرياته والتيارات الفلسفية التي تعتمد عليها المجتمعات، وما يتعلق بها من قوانين المنفعة المادية، أكثر منها انتماء لحقول المعرفة وما رسخته مفاهيم المرجعيات الثقافية عبر العصور، إضافة إلى الاتجاهات السياسية العالمية والصراع بين القوى الكبرى وبخاصة مع تغير استراتيجيات هذه القوى، واعتمادها سياسات التغيير الثقافي لخدمة أهدافها، فميزان القوى في العالم يتغير، وآلياته الأساسية في هذا التغيير تتمحور كثير منها حول حاضر ومستقبل القوة الناعمة التي تعد الثقافة مكونا أساسيا لها.

إن أخطر ما يواجه الثقافة في إطار هذه التحولات يتمثل في تلك المحاولات التي تسعى لإزالة الحدود بين الشعوب وموروثاتها الثقافية تحت مسمى العولمة، واعتمادها على فلسفة التفكيك كمرحلة أولية، ثم على فلسفة المجتمع المفتوح في مرحلة تالية، والتي تفترض بدورها ذوبان الهوية الثقافية في إطار كل أكبر، والتقريب بين المتباعدات ومحو الفوارق، والانتصار لأفكار التعددية الواردة على حساب الهويات القومية التي تسعي لتوحيد الهوية أو على أقل تقدير اختيار الهوية المعيارية التي تلتف حولها الهويات الفرعية أو يجب أن تلتف.

والأمـر لـو سـار عـلى هـذا النحـو – اسـتراتيجيات العولمـة وأهدافهـا المعلنـة - فهـو الحلـم الـذي عملـت البشريـة منـذ نشـأتها سـعيا للوصـول إليـه، إلا أن هواجـس الوعـي الثقـافي لا تسـتطيع الفـكاك مـن تسـاؤلاتها حـول طبيعـة هـذه الهويـة العالميـة المرجـو الاسـتظلال بظلهـا، وحـول هويـة مَـن سـيعيد تشـكيل الهويـة، وبمفهـوم الفكـر ذاتـه: مَـن المسـتفيد؟ ومـا المنفعـة الكامنـة خلفهـا وعـلى مـن سـتعود أو يجـب؟ أهـي منفعـة لصالـح البشريـة جميعـا، أم منفعـة مـن يـري أنـه يجـب أن يكـون، ومـا دونـه ليسـت لـه كينونـة؟ بـل لايجـب أن يكـون لـه وجـود؟ وأخـيرا، حـول طبيعـة الثقافـة التـي يجـب أن تسـود؟ وعـلى حسـاب أيـة ثقافـة؟ ومـن الـذي سـيصوغ هـذا الـكل الأكـبر ولصالـح مـن؟

إن هـذه التسـاؤلات وغيرهـا كثـير، هـي التـي تمثـل المنعطـف شـديد الحساسـية نحـو مـا يتـم ومـا سـيتم، ذلـك أن الثقافة كفعل غـدت تتحكـم في تحريـك الأحداث، ولم تعـد بمعـزل عـن الواقـع السـياسي في البنـى الفوقيـة والتحتيـة للمجتمعـات والـدول والأقاليـم، لقـد كان العمـل على الثقافـة هـو المنجـز العـصري الـذي جسـد قمـة التطـور الإنسـاني في المسـاس بهويـات الشـعوب، والأمـر مطـروح – في وعينـا العـربي - لأن الثقافـة عـلى وجـه الخصـوص تمثـل أكـثر القضايـا التـي لم يتـم الاتفـاق عـلي مفاهيمهـا ومحدداتهـا حتـى وقتنـا الراهـن، ولم تـزل بعـد تمثـل حقـلا معرفيـا يتـم تداولـه دون الغـوص فيـه، فـكل منـا يـرى الثقافـة بمنظـوره، وتبعـا لمرجعياتـه التراثيـة أو الحداثيـة، أو الدينيـة، أو الفكريـة... إلـخ، وباختصـار فـإن كلا منـا يـرى الثقافـة تبعـا لمدخلاتـه المعرفيـة، فهـل الثقافـة هـي القـدرة عـلى الـكلام والبيـان والفصاحـة، أم القـدرة عـلى الإقنـاع، أم القـدرة عـلى عـرض المعلومـات عـلى نحـو ما؟ أم القـدرة عـلى امتـلاك معلومـات في حقـول معرفيـة متعـددة؟ أم أنهـا التخصـص الدقيـق في مجـال واحـد بعينـه؟ أم هـي الإنتـاج؟ أم هـذه جميعـا؟ أم هـي سـواها.

إن الرؤيـة التـي تحتكـم إلى المنظـور الشـخصي في تحديـد مفهـوم الثقافـة –عربيـا- قـد أسـهمت في بنـاء فكـر مضلـل حـول مفهـوم المثقـف ليـس فقـط لـدى العامـة

والبسطاء، وإنما في أحيان لدى من يمتلكون طرفا منها، إذ لم يزل بعد يتم الحكم بها وبنفيها وصفا لشخص تبعا للاتفاق أو الاختلاف معه، بل الأمر يتعدى بإثباتها لمن يحمل معلومات مغايرة حتى لو لم تكن سليمة، فالسلامة ذاتها غدت هي الأخرى تفتقد إلى المرجعية، ليس بمفهومها الأخلاقي، وإنما بالمفهوم العلمي، فما طرحته أو تطرحه العولمة والانفجارات المعلوماتية يؤكد نفي إمكانية إلمام البشرية بحجم ما يتم التوصل إليه في كل ثانية من معارف ومعلومات جديدة، وذلك بعد أن كانت تقاس المعلومات بعشرات ومئات السنين من افتراضها وتجريبها، فحين توصل نيوتن – مثلا - إلى كروية الأرض انقلبت الدنيا رأسا على عقب لأزمان حتي تم تجريب الكشف وانتظمت الحياة عليه لسنوات وسنوات، إلا أنه اليوم وفي ظل التدفق المعلوماتي يمكن بسهولة إثبات أن الأرض شفافة مثلا، والأمر لن يقيم الدنيا ولن يقعدها، فكل شيء في العلم أصبح مباحا وفي الإمكان التوصل إلى معتقدات مغايرة – بالمفهوم العلمي – لما كنا نعتقده..... هكذا يسير الأمر الآن، فما الضابط إذن، وما المرجعية التي يمكن الاحتكام لها؟ وبخاصة في حقل العلوم الإنسانية التي لا يمكن تجريب منجزها في تجربة علمية مجردة، لاحتكامها إلى مشاعر إنسانية وتدخلات ذهنية (عقلية بمفهوم المخ وأبحاثه) مما يجعلها لا تحقق النتيجة ذاتها مع الشخص ذاته في الموقف ذاته مع تغيير عنصر الزمن مثلا، أو تغيير الحالة المزاجية (أي استحالة قياس الصدق والثبات).

هكذا يمكن الدخول إلى عالم الثقافة محاولة للبحث فيما تعنيه في المرجعيات العربية وغير العربية، ليس على المستوي التاريخي، وإنما على مستوى المنجز والواقع والتداول، فكل منا يحمل مفهومه الخاص عن الثقافة، وكل منا يسير بها وفقا لمرجعيته أو مدخلاته المعرفية، وقد لا ندري جميعا في ظل المنعطف إلى أين نسير!

د. محمود الضبع

القاهرة ٢٠١٦م

الفصل الأول
الثقافة التشكيل

الثقافة / الثقافات:

إن الحديث عن الثقافة لا يمكن أن يسير في مساره الصحيح إلا إذا ارتبط بهوية ما، بكينونة خاصة، ذلك أنه لكل ثقافة حدودها المعرفية التي لا يمكن تجاوزها إلا بحدود.

وهي ليست محاولة لإحداث القطيعة المعرفية كما يسميها فوكوه، وإنما محاولة للضبط حتى لاتنمحي الحدود.حيث لايمكن لموضوع أن يتشكل ما لم يتسور بأسوار وملامح تسمح له بشغل مساحة من الفضاء المطلق.

وهي محاولة تشبه تخيل تمثال من البرونز في غرفة خالية، إذ لا يمكن تخيل التمثال ما لم تكن له كتلة وحجم تشغلان مساحة من فضاء الغرفة.

والثقافة على هذا الأساس تشبه التمثال البرونزي في ضرورة وجود هوية وملامح فارقة

تحددها، ووجود حدود وإن لم تكن فاصلة على نحو قاطع، فالحدود تعبر دوما، والدوائر تشتبك وتتقاطع بما يصعب الفصل بينها، وإنما يمكن البحث فقط عن حدود تقريبية، وتقاطعات تتسم بالمرونة أكثر من اتسامها بالقطعية، فالقطعية في العلم باتت محل شك، واليقينية غدت موضع تساؤل، وهو ما اشتغلت عليه بحوث ودراسات «ضد المنهج».

غير أن العقل الجمعي عبر التاريخ قد مال إلى أن يبحث عن حدود لمعرفته، وتصورات لمفاهيمه، ويبحث على نحو مستمر في نتاج تفكيره، ونظم حياته، ويسعى للكشف عن حدود ثقافته ومفاهيمها، وتصنيفها في أبواب وأنواع، وأصول وفروع، وقد تنوعت تاريخيا التصنيفات التي سعت لنظم أشكال الثقافة ـ وليس مفهومها ـ فكان منها:

• التصنيفات الأممية: أي التي تصنف الثقافة تبعا للأمم والشعوب حيث الثقافة العربية والثقافة الهندية والثقافة اليونانية..... إلخ، وذلك اعتمادا على المنجز الفكري الذي خلفته هذه الثقافة أو تلك مكتوبا أم شفاهيا، وما أمكن له أن يدوم عبر الزمن، وأن ينتقل معبرا عن كينونته خارج حدود مكانه.

• التصنيفات الزمنية: أي تلك التي تصنف الثقافة تبعا للأجيال والأزمنة والحقب التاريخية، حيث ثقافة القرن التاسع عشر، وثقافة القرن العشرين، وثقافة العصر الإليزابيثي...... إلخ، ويمكن أن يدخل في إطارها الآن ما يمكن تسميته بعلوم المستقبل والمستقبليات التي تسعى لاستشراف ما لم يتحقق بعد قياسا على منجز فكري معاصر.

• التصنيفات الأيديولوجية: أي التي تصنف الثقافة تبعا للتوجه الأخلاقي والفكري حيث الثقافة الدينية، والثقافة الدنيوية، والثقافة الكلاسيكية، والثقافة العلمانية....... إلخ، مما يتحكم المذهب الجمعي في تحديد مساره، أي عقيدة فئة معينة تجاه جملة من المرتكزات.

• التصنيفات العلمية: أي التي تصنف الثقافة تبعا لنظريات تصنيف العلوم بدءا من الفارابي، وانتهاءا بعصر المعلوماتية المبرمج ومجتمعات المعرفة التي غدت تفتح الباب على مصراعيه وتسعى لإزالة الحدود بدلا من تحديدها، ومنها الثقافة العلمية، والثقافة الأدبية، والعلوم الإنسانية، والعلوم الطبيعية، والعلوم التجريبية....... إلخ.

وعبر هذه التصنيفات أو داخل أحدها يأتي التصنيف النوعي، أو ما يمكن تسميته بالثقافة التخصصية، فهناك الثقافة الفنية، والثقافة السياسية، والثقافة العلمية... وغيرها من أنواع الثقافات التي يمكن أن تتحقق جميعها أو بعضها عبر كل نوع من الأنواع السابقة.

وهناك تقسيم قديم للثقافة إلى نوعين فقط هما:

- الثقافة السياسية، وهي التي تهتم بأمور الناس وقضاياهم المصيرية، خاصة ما يرتبط منها بالحريات - كحرية الرأي والتصويت وحرية ممارسة الحياة- والقوانين المنظمة، والتعايش في ظل النظام، والردع والعقوبات، وقواعد الالتزام عموما.

- الثقافة الاجتماعية، وتمثلها جملة الأعراف والتقاليد والاتفاقات السائدة بين أفراد الجماعة، ومدى التزامهم بها وخضوعهم لسلطانها بوازع الانسجام مع المجتمع، والعيش في إطاره.

وهذا التقسيم للثقافة على وجه الخصوص ينطلق من فكرة الدور الذي تقوم به أو يجب أن تقوم به الثقافة لصالح الإنسان، (وهو ما اعتمده واشتغل عليه أنطونيو جرامشي فيما بعد)، والأمر على هذا النحو – التقسيم إلى ثقافة اجتماعية وثقافة سياسية - تضييق للمفهوم، ومحو كل ما ليس له علاقه بالتزامني والتزمني أي الاستغناء عما لا يسهم في الفكر السياسي والاجتماعي للمراحل الآنية والمستقبلية، ومن ثم تكون الفرصة سانحة للتخلي عن التراث الفكري لمجرد أنه كان يعبر عن فائدته في مراحله التاريخية، وربما لا تكون له فائدته الراهنة.

إن التصنيفات السابقة الذكر على اتساعها أو ضيق أفقها، لا تعدو أن تكون محاولة للتسور بالمفهوم المنطقي، إذ لا يمكن الاستغناء عن أحدها دون الآخر، حيث ينتفي مفهوم النوع دائما تبعا لانتفاء الغاية، فالحدود توضع دائما لتكسر، والحواجز تُقرر لتُعبر، إذ لا يمكن رصد ثقافة عبر تحديد زمني لفكر حقبة تاريخية بعينها، وهنا تتحول الثقافة دوما لإعادة فرز ومعادل ضروري لتزامنية الإنتاج، وكما يشيع دائما بين أصحاب الفكر إعادة التأويل بمفهوم الإبداع «ما الأسد إلا مجموعة من الخراف المهضومة، ولكن لا يبدو عليه أي خروف منها».

مرة أخرى نجد أنفسنا أمام النتاج وليس أمام العملية ذاتها، أي أمام المردود الثقافي وليس أمام الثقافة ذاتها، ومن ثم يتوجب علينا العودة إلى الأصول الأولى بمفهوم الماهية وليس إلى الدوال الناتجة بمفهوم السمات.

والبحث عن الماهوية (الماهية) يمثل في الأساس بحثا عن المكونات الأولى التي تأسست كنواة محورية ربما لا تستطيع بذاتها - والأمر كذلك - أن تدل على المكون في صورته الظاهرة، وليكن المثال هو المعادل:

الإنسان: ما ماهية الإنسان؟

هل هو حيوان ناطق؟

هل هو كائن مفكر؟

هل هو من يمشي على قدمين وله هيئة طولية؟

هل هو.... هل هو.....؟

إن كل ما ذكر آنفا إنما هي سمات تشركه مع غيره من أنواع قد لا يمكن حصرها، وهي ليست ماهيات تفرقه عن أنواع تسمح له بالفرادة. وعليه يمكن التفكير في ماهية الإنسان على أنه روح عاقلة، إلا أن الروح العاقلة لا يمكن بمفردها أن تكون مقوما للإنسان، إذ ينبغي لها أن تتجسد في جسد بهيئة تم التعارف عليها بصفاتها، وهذا الأخير هو ما يمثل السمات، وعليه

فإن الماهية تمثل الوجود بالقوة الذي لايمكن استيعابه بمفرده إلا إذا أضيفت إليه السمات فيكون وجودا بالفعل.

بناء على ماسبق تبقي إشكالية الثقافة - كماهية - قائمة، إذ ما ماهية الثقافة؟ والأمر مرهون دوما بالتعددية، حتى داخل التصنيفات التي تم تحديدها آنفا، فإنه لايمكن الإقرار نهائيا بفصل حقل معرفي عن حقول أخرى مجاورة له أو بعيدة عنه، إذ يظل الفكر الإنساني بمكوناته وموروثاته الأولية على أقل التقديرات قاسما مشتركا يتم تداوله خلالها وبينها دون أدنى إمكانية لكشفه في صورة قاطعة، والأمر كذلك في الثقافة العربية وفي غيرها من الثقافات، فهل الاعتماد يكون هنا على الجنسية؟ أم على اللغة التي تم إنتاج الثقافة فيها؟ وإلا فما الحكم - مثلا - على من ساهموا في صياغة الثقافة العربية أمثال: الزمخشري، والكسائي، وأبو الأسود الدؤلي، والخليل بن أحمد الفراهيدي، وابن سينا، وابن النفيس، وابن المقفع، وابن خالكان، وابن الأثير، وابن الهيثم، وابن خلدون، وابن تيميّة، والخوارزمي، والفارابي، وجمال الدين الافغاني، ومحمد عبده، وأحمد شوقي، وقاسم أمين، ومحمود تيمور.........، وغيرهم كثير ممن ينتمون في أصولهم العرقية إلى أصول غير عربية.. فهل يتم الاحتكام عند رصد ما أنتجوه من ثقافة عربية متداولة إلى أصولهم العرقية، أم انتماءاتهم الفكرية، أم اللغة التي كتبوا بها؟..........

ولدراسة هذه القضايا فإن الضرورة تحتم العودة بالوراء إلى تاريخ الثقافة، والثقافة العربية على وجه الخصوص، وإن لم يكن المعني هنا هو تتبع مراحل التطور، وإنما رصد المفهوم وتداوله، والمضي قدما في صياغة المشروع الثقافي القائم عليه، وهو ما يقتضي البحث في التراث العربي عن المراحل الفارقة التي كان فيها مفهوم الثقافة حاضرا في الوعي، وأبعاده، وعلاقته بالأنماط السائدة والواردة، ثم التطور الذي لحق به في إطار التأثير والتأثر، وصولا إلى الواقع الراهن في ظل ما يمر به الوعي العربي، ومحاولة استشراف ذلك مستقبلا.

الثقافة في التراث العربي:

ربما لايمكن الزعم في التراث العربي بوجود تنظير لنظرية الثقافة، وإن كان ذلك الغياب لاينفي وجودها (المنتج الفكري)، ولاينفي وجود مفرداتها وأدواتها، فمجمل نتاج التراث العربي المكتوب والشفاهي على حد سواء إنما هو مشروع ثقافي، تمت صياغته بوعي، هو في الغالب الأعم وعي بالحضارة العربية ودورها الفاعل في تطوير مسيرة البشرية، إلا أن المداخلات الخارجية والسياقات المحيطة عبر التاريخ هي التي أودت بدوره الفاعل، وعملت على عرقلته، وهو ما يمكن تلخيصه في نظرية الحكم ودورها عبر مسيرة الثقافة العربية إيجابا تارة (هارون الرشيد ودوره في وضع المؤلفات، وتأسيسه بيت الحكمة، والخليفة المأمون، ومعظم خلفاء العصر العباسي، وحركة إخوان الصفا ومحاولتها إعادة صياغة الوعي حتى وإن كان ذلك على مستوى النخبة)، وسلبا تارة أخرى (وأد الفلسفة مثلا وما حدث لابن رشد وغيره في العصر ذاته)، وإن كانت هناك عوامل أخرى بعضها خارجي وبعضها داخلي، فلا يمكن مثلا تجاهل مسيرة الثقافة العربية عبر تشكلها، وما أحاط بها من ظروف سلبية في غالبيتها، يعود بعضها إلى الاستغراق الزائد عن حده أحيانا في التقعيد والتفصيلات وتفاصيل التفصيلات مثلما حدث مع النحو وتفريعاته والفقه وتفصيلاته وبخاصة ما يتعلق منها بمحاولة التعريفات ووضع حدود العلم، ويعود بعضها الآخر إلى ندرة العرب من بين من عمل على تسجيل هذه الثقافة، والأمثلة على ذلك كثير في الفلسفة والنحو واللغة والفقه وغيره، ومن ثم كانت الدافعية والصدق العلمي وغياب المنهجية أمورا لها آثارها التي تركت علاماتها في مسيرة الثقافة ذاتها.

إلا أنه على الرغم من هذه السلبيات فإن الثقافة العربية مشروع قائم ومتحقق في آنيته ولايمكن نفيه، وإن كان الكشف عنه يحتكم إلى قانون المنتج لاقانون التنظير، ذلك أن مشروع الثقافة العربية تكون عبر مساحة

زمنيــة واســعة نســبيا قياســا إلى أي مــشروع ثقــافي لأيــة أمــة، فالــتراث العــربي متمثــلا في الشــعر يعــود في مرجعيتــه إلى 150 أو 200 عــام قبــل الإســلام[1]، وإن كان تسـجيله قـد تأخـر إلى القـرن الثـاني الهجـري، فـإن ذلـك يعـود لعوامـل تأخـر الكتابـة وانتشـارها بـين العـرب، وكذلـك الكثـير مـن معـارف العـرب وعلومهـم مثـل قـص الأثـر والاقتـداء بالنجـوم، وعاداتهـم الاجتماعيـة (الضيافـة والـزواج وقوانـين القبيلـة)، وقيمهـم الأخلاقيـة (الكـرم والعـزة والإبـاء والفروسـية والحكمـة والحـب...)، ثـم في مرحلـة تاليـة وبعـد ظهـور الإسـلام، نشـأة العديـد مـن العلـوم والدراسـات التـي اسـتطاعت أن تصـل بالثقافـة العربيـة إلى أعـلى معدلاتهـا مـع منتصـف العـصر العبـاسي قبـل أن تبـدأ في الانحـدار.

هـذه المسـاحة الزمنيـة عـلى طولهـا أفـرزت ثقافـة يمكـن تقسـيمها بوصفهـا مشروعـا إلى: ثقافـة شـفاهية، وثقافـة مكتوبـة، وكلاهـما لايمكـن الفصـل فيـه بـين مـا هـو عـربي ومـا هـو غـير عـربي، ففـي بغـداد عـلى سـبيل المثـال بوصفهـا حاضرة الثقافـة العربيـة المزدهـرة تجـاور مـا هـو إسـلامي مـع مـا هـو آشـوري وفـارسي وهنـدي ويونـاني، وأفـرز في نهايـة الأمـر نموذجـا عربيـا لثقافـة يصعـب الفصـل بـين أصولهـا وإن كان يمكـن رصـد تأثيرهـا في المـشروع الثقـافي العـربي ككل، وفي مـصر كذلـك يمكـن النظـر إلى الثقافـة الشـفاهية متمثلـة في الـتراث الإسـلامي الـذي تجـاور مـع الـتراث القبطـي والرومـاني والفرعـوني، ومـن ثـم التحمـت هـذه التراثـات في بنيـة ثقافيـة تأثـرت وأثـرت في ثقافـة الأمـة العربيـة جمعـاء، وبخاصـة إذا مـا أخـذ في الاعتبـار دور مـصر ودور الأزهـر الشريـف في حمايـة الثقافـة العربيـة في عصـور الضعـف وغيـاب الإنتـاج الفكـري في مرحلـة الحكـم العثـماني (قرابـة أربعـة قـرون)، وكذلـك الأمـر مثـلا بالنسـبة لتونـس ودورهـا في منطقـة الغـرب الإسـلامي في شـمال إفريقيـة، ومـا كان لجامـع الزيتونـة مـن دور في نـشر

1 - الأصمعـي وحـده يـرده إلى 400 عـام قبـل الإسـلام، وهـو أمـر لايمكـن القطـع بـه أو نفيـه لغيـاب المكتـوب.

ثقافة عربية إسلامية، امتزجت بتراث إفريقي متعدد المشارب، كذلك الأمر في دمشق، واسطنبول، وبلاد فارس آن امتداد الحضارة العربية إليها، وكلكتا في الهند، وغيرها من المدن والحواضر الإسلامية وبخاصة التي كان لها أثر في مسيرة الثقافة العربية.

وهذا الامتزاج بين ما هو وارد وما هو أصلي أمر لايمكن الفصل بينه على نحو مطرد، بل ربما لاتجدي عملية الفصل لصالح بنية الثقافة، ولا لصالح التقدم الحضاري، بقدر ما يمكن أن تؤديه من عرقلة وتعزيز لفكر شعوبي، على النحو الذي أدت إليه الحركة الشعوبية في تاريخ الدولة العباسية وما تلاه، وما ترتب عليه من ارتداد لم يكن بحال لصالح الأمة وثقافتها.

وعلى مستوى البحث التحليلي لمنتج الثقافة العربية سواء مكتوبة أم شفاهية، فإنها تنقسم بحسب ما كان يحكم صياغة مشروعها إلى:

- الأدب والعلوم اللغوية وما يرتبط بها من نحو وصرف وبيان وعلوم بلاغة بعامة، ونظرات نقدية.....
- الفلسفة والمنطق والعلوم الكلامية.
- الرياضيات والفيزياء والطب.
- الموسيقى والفلك.

ويعزى هذا التصنيف للفيلسوف الإسلامي الفارابي (المعلم الثاني) في نظريته تصنيف العلوم، والتي انطلق فيها لتصنيفه العلوم من موقف الإنسان المعرفي من موضوعات العلوم المختلفة، فصنف تطلب فيه المعرفة لذاتها، وتختص به العلوم النظرية، وصنف تطلب فيه المعرفة من أجل المنفعة المتوخاة من تحصيلها، وتختص بالبحث فيه العلوم العملية.

وقد رأى الفارابي أن العلوم العملية تأتي في المرتبة الثانية بعد العلوم النظرية، لأن هذه الأولى تتوقف على الثانية وتركز عليها، فهي تابعة لها وخادمة[2].

2 - انظر:أحمد شمس الدين:الفارابي حياته،آثاره، فلسفته، دار الكتب العلمية، بيروت، 1990م.

وعلى الرغم من التطور الحضاري الذي عاشته الثقافة العربية فيما بعد الفارابي، ومن التطور والتلاحم مع الثقافات الواردة ومنجزاتها الفكرية، إلا أن نظرية الفارابي ستظل تحتل مكانتها من التقدير لما لها من أثر يمكن الاعتماد عليه حتى الآن على الرغم من غياب بعض المفردات الثقافية التي تعد الآن من المكونات الأساسية لأية ثقافة مثل بنية المجتمع والأنماط التي يتعايش بها الناس ودرجة الوعي بما يفعله البشر، ودورهم الإقليمي والعالمي، وتأثيرهم في المحيطين بهم.. غير أننا لانستطيع الجور على الفارابي فنطالب نظريته بما لم يكن بعد يمثل مطلبا من مطالب البشرية، فالأعراف والتقاليد وأنماط الحياة تم تسجيل بعض مظاهرها عبر الفروع السابقة، ولم يسجل البعض الأكثر لكونه ممارسات تأصلت في النفس عبر التاريخ، ومن ثم تأخر نسبيا النظر فيها حتى ظهرت علوم مثل علم الاجتماع والعمران وفرع الأخلاق في الفلسفة وغيرها.

وإن كان تأمل تصنيف الفارابي له فائدته في النظر بعامة إلى الثقافة العربية ليس في ماضيها السحيق فقط، وإنما في سماتها المستمرة معنا حتى اليوم، فالملاحظ أن التراث اللغوي سيظل هو المجال الأول والأطول عمرا لقياس الثقافة العربية، إذ ما من منجز ثقافي عربي إلا وله شقه اللغوي، والذي يكشف عن مسيرة نمو الفكر العربي والهوية العربية بعامة، ولعل المنجز اللغوي لهذه الثقافة بما يحمل من زخم معرفي، وما يداخله من اشتباكات لايزال الفصل بينها وتحليل ركائزها، ستظل سطوته هي المهيمنة على تحديد هويته، غير أنه لا يمكن الإنكار أن العلوم اللغوية وبخاصة علوم الصرف والنحو والبيان، اعتمدت في تسجيلها على جانب أحادي رؤيوي، إذ اقتصرت على تسجيل ما تم التوصل إليه واعتباره المعيار، ومن ثم ظهرت اللغة المعيارية، وما خالفها يكون شاذا ولا يقاس عليه، فلغة قريش فقط هي التي تم اعتمادها لغة معيارية، على الرغم من تصريح الرسول عليه السلام في حديثه: القرآن على سبعة أحرف:

حدثنا سعيد بن عفير قال: حدثني الليث ، قال: حدثني عقيل عن ابن شهاب قال: حدثني عروة بن الزبير: أن المسور بن مخرمة وعبد الرحمن بن عبد القاري حدثاه أنهما سمعا عمر بن الخطاب يقول:

سمعت هشام بن حكيم بن حزام يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله (ص)، فاستمعت لقراءته، فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله (ص) ، فكدت أساوره في الصلاة فتصبرت حتى سلم فلببته بردائه، فقلت: من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ؟ قال: أقرأنيها رسول الله (ص) ، فقلت: كذبت فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أقرأنيها على غير ما قرأت، فانطلقت به أقوده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت: إني سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها فقال رسول الله (ص): أرسله. اقرأ يا هشام ، فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأ فقال رسول الله (ص): كذلك أنزلت، ثم قال: اقرأ يا عمر، فقرأت القراءة التي أقرأني، فقال رسول الله (ص) كذلك أنزلت. إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسر منه».- صحيح البخاري.

فلماذا إذا تعتمد لغة قريش بوصفها اللغة المعيارية ويترك ما دونها من الأحرف الستة الأخرى؟ ألم يكن لذلك تأثيره السلبي في توسيع رقعة الثقافة العربية التي ربما كان من المفترض عند توسيعها أن تضم إليها مئات النماذج والتباينات التي تسمح بتكوين رؤية ثقافية عامة لثقافة مترامية الأطراف تجمع شكول الأنماط الإنسانية كافة، وتوسع من المفاهيم لا أن تضيقها، وتعدد من النماذج لا أن تسعى لتوحيدها في نموذج فرد فقط؟

أليس هذا من آليات الثقافات المعاصرة (التعدد والاتساع)؟ والتي استطاعت بموجبه أن تشمل فيها الأنماط البشرية كافة، مثل الثقافات الغربية، والثقافات الشرقية الآسيوية التي تغزو العالم الآن بفكرها (الصينية واليابانية مثلا)، وذلك نتيجة اعتمادها على التعدد وليس التوحيد في نمط مفرد.

وهـذا يعنـي في إجمالـه أن الـتراث اللغـوي يجـب ألا ينظـر إليـه بوصفـه الممثـل الحقيقـي للهويـة الثقافيـة العربيـة، وإنمـا هـو أحـد الجوانـب فقـط، فـما لم يسـجل منـه أضعـاف مـا تـم تسـجيله، ومـا لم يصلنـا مـن لهجـات وممارسـات لغويـة حاملـة لهويـات المتحدثـين بهـا أكـثر مـما وصلنـا بكثـير، والمطلـع عـلى الـتراث العـربي المكتـوب يجـد إشـارات عديـدة لذلـك.

كذلـك يـأتي دور التاريـخ وتسـجيل وقائعـه الـذي خضـع في أحيـان كثـيرة للكتابـة لصالـح نظريـة الحكـم والحـكام - وهـو أمـر سـيظل سـائدا في تسـجيل التاريـخ العـربي -، ومـن ثـم تـم الترويـج لأشـخاص وإنجـازات عـلى حسـاب إنجـازات وأشـخاص آخريـن، حيـث شـوهت صـور، وتـم السـعي لتجميـل صـور، وغابـت مصداقيـة التسـجيل، فوجـدت شـخصيات عنـد إخضاعهـا للمنطـق العقـلي تبعـا للصـورة التـى رسـمت لهـا، لا يمكـن الحكـم سـوى بأنهـا شـخصيات ملائكيـة، ترقـى فـوق مسـتوى البـشر، فـكل مـا فعلتـه هـذه الشـخصيات لم يداخلـه الخطـأ مـن ورائـه ولا مـن أمامـه، وهـو أمـر يسـتحيل منطقيـا وعقليـا وتاريخيـا ودينيـا، ولنـا في شـخصية الرسـول عليـه السـلام قـدوة في حديـث تأبـير (تلقيـح) النخـل:

حدّثنـا أَبُـو بَكْـرِ بْـنُ أَبِي شَـيْبَةَ وَعَمْـرٌو النّاقِـدُ. كِلاَهُـمَا عَـنِ الأَسْـوَدِ بْـنِ عَامِـرٍ. قَـالَ أَبُـو بَكْـرٍ: حَدّثَنَـا أَسْـوَدُ بْـنُ عَامِـرٍ. حَدّثَنَـا حَـمّادُ بْـنُ سَـلَمَةَ عَـنِ هِشَـامِ بْـنِ عُـرْوَةَ، عَـنْ أَبِيـهِ، عَـنْ عَائِشَـةَ. وَعَـنْ ثَابِتٍ.عَـنْ أَنَـسٍ، أَنّ النّبِـيّ صـلى اللـه عليـه وسـلم مَـرّ بِقَـوْمٍ يُلَقّحُـونَ. فَقَـالَ: «لَـوْ لَـمْ تَفْعَلُـوا لَصَلُـحَ» قَـالَ: فَخَـرَجَ شِـيصاً. فَمَـرّ بِهِـمْ فَقَـالَ: «مَـا لِنَخْلِكُـمْ؟» قَالُـوا: قُلْـتَ كَـذَا وَكَذَا.قَـالَ «أَنْتُـمْ أَعْلَـمُ بِأَمْـرِ دُنْيَاكُـمْ».-شرح صحيـح مسـلم.

ففـي هـذا الحديـث مـا يؤكـد عـلى بشريـة البـشر، فالرسـول عليـه السـلام لم يكـن رجـل فلاحـة، ومـن ثـم عندمـا تحـدث فيهـا وتبـين لـه نتيجـة مـا أشـار بـه عليهـم لم يجـد غضاضـة في إحالتهـم إلى معارفهـم التـي درجـوا عليهـا، ولكـن الأمـر كان سـيختلف لـو أنـه كان يتعلـق بأمـر مـن أمـور الديـن، لأنـه هنـا يوحـى إليـه،

ومـن ثـم لا يحيـد عـن الحـق، وهـذه الأمـور إجـمالا تجعلنـا نقـف أمـام الـتراث العـربي مسـائلين: هـل هـذا المنجـز الـذي تـم تسـجيله أو التسـجيل عنـه هـو كل مـا حققـه المـشروع الثقـافي العـربي؟ ألم تكـن هنـاك محـاولات ومنجـزات غابـت تمامـا لاعتبـارات جغرافيـة (البعـد عـن المراكـز الحضاريـة مثـلا) أو اعتبـارات أخلاقيـة (اختلافهـا مـع وجهـات نظـر مـن سـجلوا هـذا الـتراث) أم غيرهـا؟.

فمـن المعـروف فيـما يتعلـق بالرصـد التاريخـي للثقافـة العربيـة، مـن جهـة الكتابـة عنهـا وعـن القائمـين بهـا أنـه يجـب النظـر إليـه مـن منظـور الواقـع السـياسي ونظـام الحكـم السـائد، فكـم مـن منتـج ثقـافي عـربي عـلى الرغـم مـن اتسـامه بالموسـوعية إلا أنـه أغفـل منجـزات أخـرى مهمـة بفعـل الموقف السـياسي، وهـو مـا يتضـح مثـلا في كتـاب الأغـاني لأبي الفـرج الأصفهـاني وخلـوه مـن ذكـر شـخصيات أدبيـة مهمـة عاشـت في العـصر الأمـوي مثـل إسـقاط أخبـار وأشـعار أبي نـواس كاملـة، ولم يكـن هـذا الإغفـال لموقـف دينـي مـن قبـل أبي الفـرج أو مـن فعـل ذلـك تجـاه أبي نـواس المعـروف بخمرياتـه، وإنمـا لسـبب آخـر هـو أن الكتـاب تـم تأليفـه في ظـل بنـي العبـاس والدولـة العباسـية، ومـن ثـم تكـون إمكانيـة تجاهـل كل مـن كان يخالـف العباسـيين حتـى وإن كانـت لـه مكانـة ثقافيـة إمكانيـة قائمـة وهـو مـا حـدث بالفعـل.

ومثـل هـذا الموقـف متكـرر عـلى اختـلاف المسـتويات عـبر التاريـخ العـربي، وتكفـي نظـرة إلى حجـم المؤامـرات والدسـائس والتنكيـل بكثـير مـن المثقفـين والأئمـة والفلاسـفة والشـعراء والكتـاب وحامـلي وصانعـي الثقافـة في كل العصـور العربيـة، فهـل يمكـن حينئـذ الثقـة فيـما وصلنـا عـن المنجـز الثقـافي العـربي.

إلا أن مسـيرة الثقافـة العربيـة عـلى الرغـم مـن هـذه الملابسـات يحسـب لهـا أنهـا كانـت عـلى وعـي بـضرورة اسـتيعاب الآخـر الـوارد مثـل اسـتيعابها للثقافـة الفارسـية واليونانيـة والهنديـة وغيرهـا، وهـو الأمـر الـذي سـيتكرر لاحقـا في تطويـر حضـارات أخـرى مثـل الحضـارة الغربيـة، واعتمادهـا في نشـأتها عـلى

المحتويات